اللغة العربية والهوية
في عصر العولمة

دكتور
محمود محمد الحنطور
جامعة عين شمس

دار الهداية
للطباعة والنشر والتوزيع

اللغة العربية والهوية
في عصر العولمة

دكتور
محمود محمد الحنطور
جامعة عين شمس



الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م

الكتاب: اللغة العربية والهوية في عصر العولمة

المؤلف: د. محمود محمد الحنطور

الناشر: دار الهداية ت: ٣٢٤٨٧٨٩ ٠١٢ / ٦١٧١٢٤٧ ٤

رقم الإيداع: ١٥٠٠٧ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي: 978-977-486-016-4

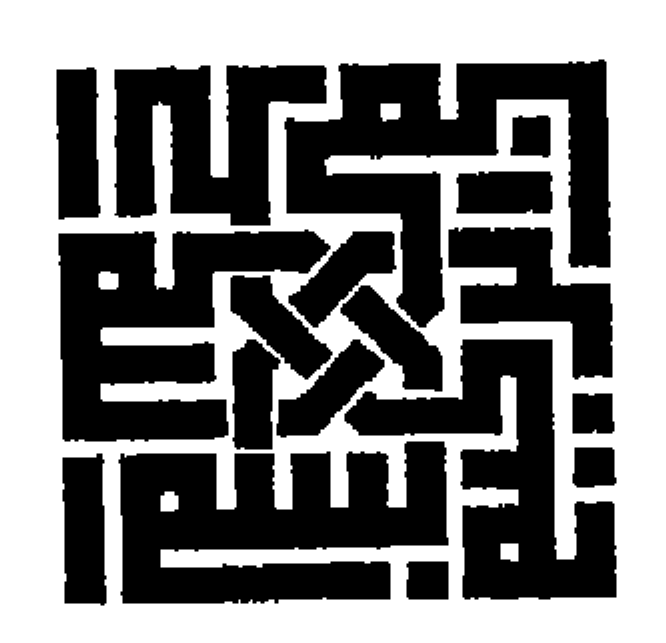
﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾
(الشعراء: ١٩٢- ١٩٥)

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(يوسف: ٢)

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾
(فصلت: ٤٤)

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾
(العلق: ١- ٥)



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، علم الإنسان ما لم يعلم، وييسر له السبل كي يتعلم، فقال في القرآن الكريم: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢) لقد جعل الله تعالى العلم أساس المعرفة، وخير طريق للمعرفة هي القراءة التي بدأت بها آيات القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١– ٥) فأي علم، وأي معرفة، وأي قراءة لا ترجع في أساسها إلى الدين، فلا خير فيها ولا نفع منها، والصلاة والسلام على محمد الأمين الذي أنار الكون بعد ظلامه، وعلم الدنيا بعد جهلها، ويسر اللغة بعد إغلاقها، وأدب الناس بأدبه، الذي أدبه به ربه سبحانه وتعالى فكان معَلَّمًا ومعَلِمًا، ومؤدَّبًا ومؤدِبًا، ونال رضا ربه، وكرمه، وفضله فقال في حقه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (النساء: ١١٣)، فهذه مجموعة فصول، مترابطة الإطار، بطريقة وصفية تحليلية في عدة نقاط رئيسية، أسميتها "اللغة العربية والهوية في عصر العولمة"، تحدثت فيها عن اللغة والهوية، واللغة والغلبة، واللغة والشخصية، واللغة

والسياسة، اللغة والأمركة والعولمة والتفكيك، راجيًا من الله تعالى أن يعبر هذا الموضوع عن أوضاع اللغة العربية الحالية والمستقبلية، والتي تحتاج منا إلى كثير من الجهد والتخطيط، والمتابعة حتى لا تذوب في مواجهة اللغات الأخرى؛ علمًا بأننا نملك كثيرًا من المقومات والأسس التي تمكننا من ذلك، فعصرنا لا يعرف إلا التقدم لا التأخر والتراخي وخاصة في حق اللغة العربية التي نزل به القرآن الكريم، وشرفها الله به أحسن تشريف، فصيانتها صيانة لنا، وتقدمها عزَّ رفعتنا، وحياها هي حياتنا، وذوبالها هو أفولنا وضياعنا، وانتظام عقدها وتيسير أمرها، هو بقاؤنا بين الأمم التي تقاتل من أجل لغتها وحياتها، لتجعل لنفسها مكانًا على وجه الأرض، من خلال اللغة التي هي الهوية والشخصية والثقافة والعلم، وما أجمل قول شاعر النيل حافظ إبراهيم في اللغة العربية وحالها الآن:

وسعتُ كتابَ اللهِ لفظًا وغايـــــةً ... وما ضِقتُ عن آيٍ به وعِظاتِ
فكيفَ أضيقُ اليومَ عن وصف آلةٍ ... وتنسيقِ أسمـــاء لمخترعــــاتِ
أنا البحرُ في أحشائه الدّر كامـــنٌ ... فهل سألوا الغَواصَ عن صدفاتي

ثم يعيب على أهل اللغة العربية حالهم اليوم بقوله:

أيهجُرني قومي – عفا الله عنهُـــم ... إلى لغـــةٍ لمْ تتصـــلْ بـــرواةِ
سرتْ لوثةُ الإفرنج فيها كما سَرى ... لعابُ الأفاعي في مسيلِ فراتِ

ثم بعد ذلك يرجو أهل اللغة العربية المحافظة عليها حتى لا تموت كما ماتت غيرها من اللغات:

فإمّا حياةٌ تبعثُ الميتَ في البِلي وتنبتُ في تلك الرموسِ رُفاتـــي

وإما مماتَ لا قيامةَ بعـــــده مماتٌ لعمري لم يُقس بمماتِ[1]

وكأني بشاعر النيل يستحث في أهل اللغة العربية هِممهم، ونَخوتهم، وفطانتهم، وهويتهم، بل حياتهم التي إن ضاعت من بين أيديهم، فلا رجوع لهم ثانية ولا ذكرى لهم، بل موت لا يقاس به أي موت آخر، فهي الحرب وإن شئت فهي حرب العولمة الحديثة التي تقتلع المسلّمات، وتجتث الثوابت، وتخرب العقول، وتغيب الحقائق في شكل التقدم، ووصف العلم وركاب التكنولوجيا، ومؤامرة التطور التي باتت أركانها الآن جاثمة على الصدور تدعو في كل وقت، وفي كل صقع، وفي كل أوان قائلة إن الحضارة للغرب فحسب، والتقدم للغرب فقط، والثقافة في أمريكا وحدها، وما عدا هذا تخلف، ورجعية، وانحطاط، وتبعية؟!! لكل هذا كانت اللغة هي

---

(١) حافظ إبراهيم: ديوان ٢٥٣/١، ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٠م، ضبطه أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري.

الهوية، وهي الشخصية وهي الحياة التي لا حياة بعدها في كل عصر وأوان.

د. محمود محمد الخنطور
مصر الجديدة
٢٠١٠م

* * *

الفصل الأول

اللغة والهوية

لقد فطن علماء اللغة في العصر الحديث إلى ما أشتهر عند المربين من التخلية قبل التحلية، فإذا أردت أن تربي فكرًا، فليكن التركيز الأولي على تخليته من اعتقاده أو تصوره أو ثوابته ثم تحليته بما تحب أن يكون فيه على حسب الحال، وهذه الوسيلة أفادت كثيرًا، وبخاصة أساتذة اللغات الأجنبية، الذين يمارسون التعليم والتربية تبعًا لذلك، فهم يحققون ما يصبون إليه من وجهين متقابلين، **الأول** هدم البنية والهوية[1] للمتعلم، **والثاني** بناء الهوية[2] التي يتبعها المعلم وتأسيسها على مراده هو، وثقافته هو، بحيث يصبح المتعلم لتلك اللغات فاقدًا هويته دون أن يشعر بذلك، وسائرًا إلى طلب المزيد من هذه اللغات الأجنبية دون أن يدري أن السم في الدسم، فهو أي المتعلم لهذه اللغات مطالب بمعرفة كل ما يتصل بها من منظومة حياتها، وبيئتها، وتطورها، ومطالب أيضًا أن ينغمس في هذه اللغات حتى يجيدها، ويحتاج إلى بحث أساليب تطوير هذه اللغات كي يطور

---

(١) الجرجاني: التعريفات ٢٥٢ والهوية بالفتح ميلان النفس، وبالضم الحقيقة المطلقة.

(٢) جون جوزيف: اللغة والهوية، ترجمة د. عبد النور خراقي، ط الكويت ٢٠٠٧م، من سلسلة عالم المعرفة ٢٤٢، أغسطس ٢٠٠٧م.

نفسه تلقائيًا معها، فيبتكر ما يعلمه جديدًا أو ييسر عليه الدخول في مجالات هذه اللغات، حتى يكون عضوًا فاعلاً في هدم هويته دون أن يدري، وطالبًا للمزيد دون أن يُطلب منه، فقد وجهه المعلم إلى الطريق الصحيح الخطأ دون أن يشعر، وعلى ذلك تبدأ سلسلة التأثيرات المعلنة وغير المعلنة التي يطالب بها المتعلم لهذه اللغات في الحط من شأن لغته الأساسية، والازدراء لمعتقداته، والتحقير من حياته، وبيئته، وعربيته إن كان عربيًا، وإسلاميته إن كان مسلمًا، وبالتالي يصل التأثير إلى أبعد مدى يمكن الوصول إليه، وهو الدين سبب التخلف، والقرآن أساس الرجعية، وتقدمنا مرهون بتخلينا عن هويتنا، والتي هي في الأصل لغتنا العربية، وعاؤنا الثقافي، وعنواننا المعرفي والحضاري، وهي مأخوذة كلية من القرآن الكريم الذي لا يستطيع أحد الشك فيه أو حتى التهوين من قيمته، ولكن بطريق غير مباشر كما فعل الاستشراق[1] قديمًا وحديثًا حينما جاء لدراسة الشرق ومعتقداته وبيئته، لا حبًا في الشرق، ولا تطويرًا له، وإنما لكي يتعلم كيف ينقد الشرق بلغته، وينقض البيت بصاحبه، ويهون من لغته بلغته، ويبني على هدم الآخرين، مستخدمًا لغتنا، وأبواقًا منا بشرية كانت أو مادية، كانت ومازالت أدوات يحركها كيفما شاء،

(١) د. محمد خليفة حسن: أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر ١٦٩، ٣٠٥، ط السعودية ٢٠٠٠م.

فكانت دعوات إلى العامية، والفرعونية، والمصرية وآخرها اللاتينية التي نجحت في قلب الخلافة العثمانية، وغيرت تركيا لغتها، ودينها الإسلامي كما فعل بها كمال أتاتورك في ثورته العسكرية والثقافية، آنذاك وفرض[1] العلمانية على تركيا حتى تصبح دولة متقدمة، والنتيجة الآن لا الغرب قبلها، ولا حافظت على دينها، بل غرس الغرب فيها التخلي عن الهوية الإسلامية، والعربية، والتحلي بالهوية الغربية، والانغماس في الثقافة الغربية، والتنكر لماضٍ زاهر، وحضارة عالمية، كانت — وما زالت — رافدًا أساسيًا في حياة العالم، وصلاح المجتمع، ورفاهية الفرد بما تحققه من التوازن بين المعقول والمنقول، والقوالب، والقلوب، والمادة والروح، وهذا سبب بقائها، وسر تفوقها حتى الآن على غيرها من الحضارات الأخرى التي أخذت تعلي من قيمة على حساب الأخرى حتى ظن أهلها أنهم المتفوقون، والمتميزون عن غيرهم بما عندهم، وهذا الاستكبار وهم وخيال، تثبت الأيام كل دقيقة أنه كذلك، وفوق ذلك من المهالك، التي أوشكت أن تعم بها البلوى، وتضج منها الشكوى، وأين الثرى من الثريا؟ وأين باقل العاجز من قس بن ساعدة في بلاغته وفصاحته حتى نقيس هذا بذاك؟.

---

(١) د. محمد البهي: العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق ٨٥ ط الأزهر ٢٠٠٧م.

وما زلنا نحن بمصر نعاني من هذه الدعوات التي انطلقت على لسان شرذمة منا، تنادي بالعامية المصرية، والأدب العامي، واللهجات المحلية، ولكن الله تعالى سلم بفضله وكرمه ووجود القرآن الكريم، وعلماء العرب المخلصين الذين دافعوا عن هويتهم، وتمسكوا بعربيتهم وشرحوا فضل لغتهم، ثم بينوا الحق من الضلال، حينما دعا عبد العزيز فهمي باشا إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية[1] ومن قبله ومن بعده، من ردد أقاويل المستشرقين ودعاة العامية، مثلما شكك جولد تسهير وإخوانه في صحة الرسم العثماني أو النص القرآني[2]، وحدث مثل هذا في تاريخ الشعر الجاهلي لطه حسين، وقد رد العلماء عليه، ومن هذا الرد الجميل دفاع الرافعي في – تحت راية القرآن[3] – ورده الرائع على المنادين بتمصير اللغة أو فرعنتها، أو غير ذلك من دعوات ذهبت أدراج الرياح، ونسمع الآن قريبًا من هذه الدعوات، ونشاهد من يحاولون أنسنة النص القرآني مثلاً أي جعله قابلاً للنقد والتعديل والزيادة والنقصان مثله مثل أي نص أدبي خاضع للمعايير النقدية والنظريات الحديثة سواء

---

(١) أحمد محمد شاكر: الشرع واللغة ١٦، ط القاهرة ١٩٧٨م.

(٢) جولد تسهير: مذاهب التفسير الإسلامي ١٠٤، ترجمة د. النجار، ط الخانجي ١٩٥٥م.

(٣) الرافعي: تحت راية القرآن، ٥٢، ١٦٠، ط القاهرة ١٩٦٦م.

– محمود محمد شاكر: قصة قلم ١٠٧، ط الهلال ١٩٩٧م.

– محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ١٦٣، ط الهلال ١٩٩١م.

أكانت في اللغة أم في الأدب أم في القرآن، المهم هو الولوج إلى نقد هذه اللغة، وفقدان هويتها، ومن ثم الدخول إلى نقد القرآن، وفقدان إلهيته وقدسيته، ومن ثم فقدان الهوية عمومًا واللغة خصوصًا.

يقول د. بشر في محاضرته الرائعة: "أن هويتنا اللغوية والثقافية هوية مهزوزة يشوبها نوع من التفكك والاضطراب، وضرب من التنافر والتناقض، ومن ثم يسوغ لنا أن نقرر أن ليست لنا هوية لغوية وثقافية موحدة، فاللغة العربية — وأعني بها اللغة المنطوقة — تعاني من بلبلة الألسن، وتعدد اللهجات والرطانات التي تحسب بالعشرات، بل بالمئات وكذلك ثقافتنا القومية لم تنج من هذا التفرق والتمزق، ولم تسلم من الخلط وخلخلة البناء: فهناك ثقافة الخاصة، وخاصة الخاصة، وثقافة العامة، وعامة العامة وثقافة رجل الشارع، وثقافة أهل الحرف والصناعات، وهذه الثقافات — وإن اتفقت في بعض الثوابت وما أقلها — تدفع بأصحابها إلى مسارات من السلوك متباينة، وتوجههم اتجاهات متباعدة، ومن ثم يصعب الالتقاء عند نقطة الهدف القومي بعامة وأعني بها فكرة الانتماء إلى الوطن المعين وكذلك بالنسبة للغة"[1] ثم يحدد المحاضر المشكلة التي نعاني منها الآن

---

(١) د. كمال محمد بشر: اللغة العربية بين العوربة والعولمة، محاضرة في الجلسة ١١ من مؤتمر المجمع في دورته ٦٨ لسنة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، مجلة المجمع، العدد ٩٦/ ٤٤، والمحاضر هو الأمين العام للمجمع بالقاهرة.

واللغة العربية فاقدة للهوية فاقدة للعروبة إنها أمشاج وأخلاط من الكلام، فصيحة نادرة الاستخدام، ومملوءة باللحن والخطأ، وفي المدارس والمعاهد العامة تقدم بطريقة هوجاء غير منضبطة المعالم، وتقدم موادها أحيانًا باللغة العامية بل إن النحو نفسه يقدم بهذه الطريقة، أما في الجامعات فإن أصحاب الاختصاص فيها لا يلقون لها بالاً، ولا يهتمون بها، ولا بدروسها الاهتمام المناسب حتى إن مؤلفاتهم وآثارهم المكتوبة محشوة بالخطأ والتجاوز، ونلاحظ هذا الخلط كل الخلط في تقديم المواد العلمية، كالطب والهندسة ونحوهما، حيث يؤثر بعضهم التعامل مع الطلاب باللغات الأجنبية، ضاربين صفحًا عن اللغة العربية، في حين أنه من الأوفق والأسلم بل من الواجب تعريب اللسان باستخدام اللغة القومية" وأنا أتعجب من واقعنا الآن الذي نجح في صوغه قديمًا دنلوب حينما تولى الإشراف على وزارة المعارف ووضع أسس التفريغ كما يقول محمود محمد شاكر في رسالته "ووضع **دنلوب** أسس التفريغ الكامل لطلبة المدارس المصرية أي تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفق في دمائها مرتبطًا باللغة العربية، وبالإسلام، ومهد إلى ملئه بماض آخر بائد في القدم والغموض، لم يبق من ثقافته شيء ألبته، ليزاحم هذا الماضي الفارغ بقايا الماضي ويجعل أجيال طلبة المدارس في حيرة مدمرة بين انتمائين، بين الانتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة في كتب

أسلافهم وبين الانتماء إلى الفرعونية التي بادت، وبادت ثقافتها ولم يبق فيها إلا أطلال من الحجارة مهما بلغت من العظمة والجلال فهي فارغة من ثقافة حية تتدفق في القلوب والعقول والألسنة، وإنما هي آثار لا تغني شيئًا ولا تؤتي ثمرة[1] واستكمالاً لهذا التفريغ، سينشأ — وهو ما تحقق الآن — جيل من تلاميذ المدارس لا يعرف ماضيه، بل يعرف ماضي الغزاة ولغات الغزاة، أكثر مما يعرف لغته وماضيه، وثوابته، وهي معضلة اليوم التي تحدث عنها د. بشر في مقاله السابق، فلا نحن أخذنا حضارة الغرب المادية[2]، ولا كسبنا ثقافتنا الروحية، فأصبحنا في مفترق الطرق، ننظر هنا وهناك، كلما دعانا داعي الحضارة الغربية، سرنا وراءه دون فكر أو عقل، وخاصة في عصر العولمة والأمركة، ويستشهد المؤلف بقول البحتري:

ومن العجائب، أعينٌ مفتوحة ... وعقولُهن تَجولُ في الأحلامِ

فأحلام النهضة والتجديد، والأصالة والمعاصرة، والثقافة العالمية وأحلام أخرى كثيرة لا تنقضي!! أحلام جعلت صدمة التدهور مستمرة متهاوية متفاقمة إلى هذه الساعة التي نقرأ فيها هذه الرسالة، كما يقول محمود محمد شاكر[3] في عصره، فماذا عن عصرنا نحن

---

(١) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ٢١٨ .

(٢) د. محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية ٤، ٥، ط المكتب الإسلام ١٩٧٩م.

(٣) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ٢٢٣ .

الآن، وما وصلنا إليه[1] والحقيقة التي لا مهرب منها إننا نواجه مشكلة لغوية قد تؤدي إلى ذوبان اللسان العربي – كما يقول د. بشر – وفقد هويته، فيصبح القوم أقوامًا ناشزة متنافرة، وهذا بدوره يؤدي إلى الذوبان الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي – أيضًا وهي كارثة بكل المقاييس، نحتاج إلى تربية لغوية عربية عامة شاملة في البيت[2] والمدرسة والجامعة والمجتمع بأسره، كما فعلت الدول التي حفظت لغتها، ومنعت التحدث بغيرها، أو تعليم الصغار غير لغتها مثل ألمانيا وفرنسا وغيرها من الدول التي جعلت هويتها في لغتها، ولغتها هي ماهيتها التي لا تنفك عنها أبدًا، فاللغة العربية هي هويتنا التي نحافظ عليها من خلال حفظنا لديننا، وشريعتنا وقرآننا الذي نزل عربيًا، وسيظل عربيًا إلى يوم القيامة، ولقد أعجبني تحليل د. زكي نجيب محمود في رؤيته للانتماء والهوية حينما قال: "وأما المثل الثاني الذي نأخذه من الحياة العلمية، فهو أن علماء اللغة حين انكبوا على دراسة اللغة العربية دراسة مستفيضة وعميقة باعتبارها الخطوة الضرورية الأولى لفهم القرآن الكريم فهمًا مؤسسًا وموثقًا، رأينا هؤلاء العلماء وقد انقسموا مدرستين مختلفتين في وجهة النظر،

---

(١) د. سعيد إسماعيل علي: عندما تغّرب التعليم ٨٣، بمجلة الهلال، عدد سبتمبر ٢٠٠٧م، صناعة المستقبل بالتعليم.

(٢) د. كمال بشر: بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٩٦/ ٤٢ .

أحداهما كانت في البصرة، ومن أبرز أعضائها سيبويه الفارسي الأصل، وأما الثانية فكانت في الكوفة، وكان رجالها عربًا خلصًا، فعلى الرغم من أن موضوع الدراسة علمي بحت، إلا أن الروح القومية تسللت إلى عملهم، من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وكان مدار الخلاف بين الجماعتين. هو ماذا يكون مرجعنا في تمييز ما يجوز وما لا يجوز في اللغة واستعمالها استعمالاً صحيحًا؛ أما علماء الكوفة فلم يترددوا في أن يكون المرجع في الحكم هو ما قاله العرب الأقدمون وما لم يقولوه، فاللغة لغتهم، وعنهم يأخذ الخلف فما استعملوه يعد صحيحًا، وما لم يستعملوه لا يجوز لمن جاء بعدهم أن يجيزوا استعماله لأنفسهم، لكن علماء البصرة كانت لهم نظرة أخرى وهي أن نترك للعقل المحض أن يشتق من الأصل اللغوي ما يمكن اشتقاقه من مفردات، مادامت مشتقة وفق القاعدة فهي صحيحة حتى ولو لم نجدها مستعملة عند الأقدمين فيما تركوه من شعر ونثر، لا، بل إنه ليجوز لعلماء الخلف أن يصفوا بالخطأ ما قد استعمله أحد الأقدمين، إذا كان قد جاوز فيه القاعدة العقلية في استدلال الفروع على الأصول، فإلى هذا الحد يبلغ أثر الروح الوطنية حتى ليظهر ذلك الأثر في مجال العلم، وليس بخاف على أحد، أن علماء اللغة في البصرة والكوفة جميعًا، كانوا يدينون بالإسلام، بل كان دافعهم الأول إلى البحث في اللغة هو خدمة الكتاب الكريم،

لكن المشاركة في الدين لم تمنع أن يتأثر كل فريق بما يعلى من شأن قومه، فعرب الكوفة يعلون من شأن الأصول العربية، والمتأثرون بالفرس بالبصرة يلجأون إلى منطق العقل، ليكون المعنى الضمني في ذلك ألا فضل للعربي على سواه حتى في موضوع اللغة العربية ذاتها[1].

ثم ينتقل د. زكي نجيب محمود إلى الإجابة عن أسئلة العصر، ومعضلات الوقت عن ماهية الشخصية العربية الأصلية، وأهم مقوماتها، وأهم ما يميزها عن غيرها في قوله: "وهو أن أصالة العربي تبدأ من كونه يتكلم لغة عربية، وإذن، فلا بديل أمامنا إلا أن نرعى هذه اللغة على ألسنة أبنائها، وأقلام كتابها، فهي بطاقة الهوية التي تجعل من العربي عربيًا، هذه بديهية لا أظنها مثيرة للجدال، لكني أنتقل إلى ما يترتب عليها، لأنه لا يبدو للناس بهذه البداهة كلها، وهو أننا إذا أردنا الحياة في عصرنا، فلابد من صبّ هذا العصر بكل ما فيه من علم وأدب في وعاء اللغة العربية، أعني أنه لابد من ترجمة العلوم العصرية كلها، وكذلك أدب العصر وفلسفته، وبقدر ما نستطيع أن نسكب مادة العصر في إنائنا اللغوي، يكون نصيبنا من المعاصرة[2].

---

(١) د. زكي نجيب محمود: رؤية إسلامية ٥٢، ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٥م.

(٢) د. زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر ٦٧، ط الهيئة ١٩٩٧م.

ونختم بهذا التحذير من عالم لغوي معاصر هو د. كمال بشر بقوله: "أيها الناس: حقيقة الأمر أن العولمة هي أمركة سادت العالم طوعًا أو كرهًا فمنهم من قبلها بنفسه ومنهم من فرضت عليه فرضًا، وهي أمركة ثقافية ولغوية وسياسية وعسكرية أيضًا، ونقول: لمّ هذا الفساد والإفساد الذي جرى ويجري للغتنا وثقافتنا؛ أنها قضية ذوبان لغوي وثقافي ويبدو أن هذا الذوبان آت في القريب العاجل"[1]. ثم يضع تساؤلاً فيه من الحلول الكثيرة التي يجب علينا الأخذ بها ضرورة لا مناص منها بقوله: "القضية ليست قضية أفراد أو فئة من الناس، إنها تحتاج إلى نظرة قومية سياسية علمية من الناحيتين اللغوية والثقافية، أو قل إن قضيتنا هذه تحتاج إلى تخطيط لغوي، وتخطيط ثقافي، وتخطيط روحي. كيف؟ الإجابة عند كل العرب مسئولين وجماهير"، فماذا جرى للهوية المصرية، كثير من التغيرات والتطورات، ولكنها إلى الضعف، والتمزق، أقرب منها إلى التمسك والرشاد[2].

والحقيقة أننا بحاجة إلى جهد جماعي وفردي على كل المستويات كي نقيل هذه اللغة من عثرتها، وهذا لا يأتي بالكلام إنما بالفعال والعمل المستمر والخطط المستقبلية، ورؤية الواقع الذي أصبحنا فيه،

---

(١) د. كمال بشر: مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٩٦/ ٤٨ .

(٢) فاروق جويدة: الأهرام المصرية ٢٠٠٩/٨/٢١م.

نهتم بالملبس، والمأكل، والمظهر، وننسى الجوهر، ألا وهو عربيتنا، وهويتنا، وحقيقتنا التي بدونها لن نكون، لذلك قال تعالى تعريفًا وتشريفًا وتذكيرًا: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنـــزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ (الشعراء: ١٩٢- ١٩٥).

* * *

الفصل الثاني
اللغة والغلبة

إن غلبة اللغة بغلبة أهلها، وإن منـــزلتها بين اللغات صورة لمنـــزلة دولتها بين الأمم، بهذا المفتتح الخلدوني استهل المترجم الدكتور عبد النور خراقي ترجمته للكتاب المهم — اللغة والهوية — تأليف: جون جوزيف[1]، والعلاقة بين اللغة والهوية، والغلبة من الضرورات التي يجب التصدي لها الآن، حيث شاعت اللغة الإنجليزية مثلاً، وتعاظم دورها، إما بسبب التقدم التكنولوجي، وإما بسبب العولمة التي جعلت كل شيء في بلد المنشأ أي أمريكا أو بريطانيا مستوردًا يومًا بيوم بل ساعة بساعة، ومن هنا ساعدت النظم التي اخترناها نحن إلى غلبة الغالب، وهضم حقوقنا ولغتنا، بأيدينا للأسف، فعلى سبيل المثال لا الحصر أن الطفل في مرحلة الاستقرار[2] اللغوي التي تبدأ من السادسة أو السابعة إلى الثالثة عشرة من عمره، المصري - مثلاً - يدرس اللغة الإنجليزية أو الفرنسية، قديمًا في الثانوي فقط، حديثًا من القرارات الجديدة التي عمت، وطمت تعليم هذه اللغات في هذا السن إجباريًا من مرحلة

---

(١) من سلسلة عالم المعرفة، برقم ٣٤٢ عدد أغسطس ٢٠٠٧م.

(٢) د. علي عبد الواحد وافي: نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ٢٢٧ط نهضة مصر ١٩٨٠م.

الروضة أو الحضانة أو حتى ما يطلق عليه مرحلة الاستماع التي يسعى المربون والمعلمون فيها إلى إسماع النشء النماذج أو تعريفهم الكلمات، والحروف التي تخص لغتهم، لا لغة غيرهم، فكما يذكر د. وافي: "أن الطفل في هذه المرحلة والتي قبلها، يفقد الميل الفطري للتقليد اللغوي للغته، فهذه المرحلة ترسخ لديه العادات اللغوية، ويستقر نطقه، وشكل حديثه وصفات تراكيبه وأساليبه، وأن كل أولئك يجعل تعلمه لغة أجنبية من أشق الأعمال عليه وعلى مربيه[1] وهذا هو الحاصل الآن، والواقع فيه المربي والمعلم والنظام التعليمي في مصر مثلاً، فنحن بهذه الطريقة نحمل أولادنا عبئًا فوق طاقتهم، ونرغمهم على غلبة لغتهم، وهدرها، وهدمها، بتعليم لغة أخرى.

قال د. وافي: "ومن هذا يظهر ما وقعت فيه نظمنا المدرسية في العهود السابقة من خطأ إذ قررت تعلم اللغة الأجنبية على تلاميذ المدارس الابتدائية، وسنهم يتردد بين الثامنة، والثالثة عشرة، فالطفل كما قلنا لا يكاد يتجاوز السابعة من عمره حتى يفقد ما كان لديه من ميل فطري إلى تقليد الأصوات، فتكليفه في هذه المرحلة تعلم لغة أجنبية تقتضيه بذل مجهود جبار لم يقو بعد على بذله، وغني عن البيان أن في إرغامه على بذل هذا المجهود إرهاقًا له، وتعطيلاً لنموه

(١) د. عبد الواحد وافي: نشأة اللغة ٢٢٧ .

الجسمي والفكري، هذا إلى أن الطفل في هذه المرحلة لا يمكن أن يدرك الفائدة التي تعود عليه من تعلم لغة أجنبية، بل لا يمكن أن يدرك مدلول – لغة أجنبية – أي لسان يتفاهم به شعب غير شعبه فلا يمكن أن يهتم بهذا التعليم لذاته، ولا لما عسى أن ينجم عنه من فوائد، وبذلك يتجرد عمله عن الغاية، ومتى تجرد العمل عن الغاية أصبح من قبيل – الأشغال الشاقة – التي يحكم بها على المجرمين، فضلاً عن هذا كله، فإن ما يتعلمه من لغة أجنبية في هذا الدور يزاحم المعلومات الأولية التي يتلقاها عن لغة بلاده، فيعوق إلمامه بمفرداتها وأساليبها وقواعدها، وفي هذا الضرر ما لا يحتاج إلى بيان[1]"، وهذا قبل وجود المدارس الخاصة التي تعلم بلغة بلادها كل المواد الدراسية، فيصبح الطالب أو التلميذ نسخة مكررة من الفكر والثقافة التابعة لها لغة الدراسة، وبذلك يحصدون هم الجوائز، ونجني نحن ثمارًا فجة، وعقولاً ممسوخة، تسخر من لغتها، وتزدري ثقافتها، وتنكر دينها، وهذا أعلى ما تصبوا إليه هذه الدول التي قدمت كل المساعدات المادية والمعنوية، والتعليمية، وفتحت أبواب جامعاتها ومدارسها لكل من تخرج على شرطها في بلده أو وطنه، كما هو حادث الآن، ويا للعجب "وقد فطن لهذا معظم الأمم الأوروبية والأمريكية فأرجأت تعليم اللغات الأجنبية في مدارسها، إلى مرحلة

---

(١) د. عبد الواحد وافي: نشأة اللغة ٢٢٨ .

التعليم الثانوي"[1] وبعضها منع تدريس اللغات الأخرى، أو اشترط شروطًا تعجيزية لمن يعمل عنده أو يسافر لبلده، أو يدرس، حفاظًا على لغته، واستمرارًا لثقافته حتى لا تضمحل أو تتفسخ، كما نجده عندنا الآن، فبالأمس القريب كانت الكتاتيب، أو المدرسة الإلزامية خالية تمامًا إلا من تحفيظ القرآن سماعًا وكتابة، وقليل من الحساب، واللغة العربية، فأنتج ذلك جهابذة اللغة، والفصاحة والبلاغة، والطب، والهندسة وغيرهم، لماذا، لأنهم تعلموا لغتهم أولاً ثم ساروا يبحثون عن غيرها، والعقاد خير مثال على ذلك، والبارودي الشاعر، وشوقي، وحافظ إبراهيم، ومشايخ الأزهر وعلماؤه الأجلاء الذين نشروا العلم في الكون كله خير دليل على ذلك، أما الآن، فسمة العصر اللغات الأوروبية، والحض عليها، والنكوص عن لغة الهوية والحضارة والعلم، بل نسيانها حتى تموت، لولا فضل الله سبحانه، فالغلبة للغالب، والنتيجة التي يجب أن يخرج بها صاحب اللغة الغالبة في بلد المغلوب، ومصر مثلاً، فبعد الحرب العالمية الثانية يحاول الأجنبي أن يفرض علينا علمانية من نوع آخر متطرف: يحاول أن يفرض علينا إلغاء الدين عقيدة، بعد أن طمست معالمه عملاً في أوضاع المسلمين، يحاول أن يصل بنا إلى ما يسمى – الإلحاد العلمي – وهي مرحلة من مراحل العلمانية، كي نصل عن طريقه إلى مجتمع

(١) د. عبد الواحد وافي: نشأة اللغة ٢٢٨ .

غير طبقي يفرض علينا العلمانية كحل لمشكلة ازدواج السلطة، وكحل آلي لتحقيق ما يسمى بالعدالة الاجتماعية[1]، وهذا الفرض كما يذكر د. البهي في التفكير، حتى يجرنا إلى مشاكل ليست من طبيعة بيئتنا، ويدفعنا إلى متاهات، ننسى فيها ديننا وتاريخنا وكل عوامل مقوماتنا أو نتركها عن قصد، وربما نتركها متحدين إياها، وجاهدين في حمل الآخرين منا على الترغيب عنها، فقد فرض علينا الأجنبي منذ الاستعمار وحتى الآن، العلمانية في تعليمنا وفي تشريعنا وفي تفكيرنا وسلوكنا وسياستنا، واقتصادنا، ففصل بين الإسلام وحكم الدولة، وأبعد الإسلام من مجالات الحياة العامة وتركه داخل المسجد، وفي قلوب الناس يمارسونه اعتقادًا، وقلما ينـــزلون به إلى التطبيق، وهو بذلك يريد سلخنا عن ديننا كما سلخت أوروبا الدين عن نفسها[2]، وفصلته عن حياتها، وفي هذا الطريق صعب على الغرب، وبخاصة في هذا العصر، أن ينسلخ المسلمون من دينهم، أو عقيدتهم، فجاءت الدعوات التي تبشر بلغة جديدة، وفكر جديد كما سبق، ومن هذه اللغة الجديدة، والفكر الجديد، بدأت اللغات غير العربية تأخذ مكان العربية الأم، فيصبح العجمي متمسكًا بلغته أيًا كانت، والعربي مفروض عليه لغة أخرى ومن هنا يسهل ابتلاع

---

(١) د. محمد البهي: العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق ٢٦ .

(٢) المرجع نفسه ٢٧ .

أي دولة، ويسهل اقتلاع لغتها، كما فعلت تركيا في علمانيتها، ولغتها أي كتابة التركية بحروف لاتينية بدلاً من الحروف العربية، وبذلك تم فصلها عن ثقافتها العربية وبالتالي عن القراءة أو الكتابة أو العلم باللغة العربية وينتج عنه نسيان القرآن، وضياع لغته، وهذا ما فعله الاتحاد السوفيتي قبل انهياره في دول الكومنولث الآن، وهذه الكلمة الباقية التي قالها د. البهي: "والتقدم الصناعي والعلمي في تركيا العلمانية لم يكن بسبب الفصل بين الدين والدولة أي لم يكن بسبب إبعاد الإسلام عن شئون الدولة، وما تجر إليه مبادئه — كما يقال ويدعى من التخلف — وإنما كان مكافأة من الغرب والشرق على السواء لتركيا عن إبعادها للإسلام ...: وإنما كان أولاً وأخيرًا بسبب المساعدات الأجنبية التي قدمت لتركيا من جانب روسيا في الشرق وأمريكا على الخصوص من الغرب، وهي مساعدات اقتصادية وفنية وعلمية لتتحول إلى نموذج بين الدول الإسلامية[1]، وهذا النموذج يسهل تطبيقه بعد ذلك في الدول التي تتبع السياسة الأمريكية أو السياسة البريطانية، أو غيرها من الدول التي تدعى أنها دول متقدمة أو من الصف الأول في العالم، ومصلحة هذه الدول في عزل أي دولة عن لغاتها أو دينها تكمن في سهولة السيطرة عليها، إما بنهب ثرواتها أو إشاعة الإرهاب أو التطرف، وتخريب القيم

---

(١) د. محمد البهي: العلمانية والإسلام ٨٦ .

الإسلامية التي جاء بها الإسلام كما تنادى به الآن البهائية[1]، أو البابية، التي أفتى علماء المسلمين بخروجهم عن الدين، ومروقهم عن شرائعه وأركانه، وكذلك تجريد الشباب المسلم من الروح الدينية، والعواطف الإسلامية، والعقلية الإسلامية، والتعليم هو أقرب الطرق للوصول إلى هذه الأهداف، فيستطيع الغرب الغالب أو المتقدم أن ينشئ من خلال لغته وتعليمه الأجيال المسلمة، والعربية، جيلاً جديدًا فيه طبيعة النفعية، والأبيقورية[2]، وطبيعة التهام الحياة وانتهاب المسرات وتقديس المادة ورجالها، وعدم الاستقامة الخلقية والتماسك، وضعف الثقة بالنفس والشك في الدين، بحيث لا ينشأ شاب مثقف يشعر بالشعور الديني ويحمل العاطفة الدينية والغيرة القومية، ولا يهتم بشيء آخر غير المناصب والرواتب والدرجات.

قال العقاد: "نعم إن المغلوبين كانوا يثورون على الغالبين في جميع العصور قبل المناداة بحقوق الإنسان، ولكنهم كانوا يثورون للأنفة من الغلبة والألم من الغضب والمشاركة في الأرزاق، وهي ثورة لا ترجع إلى الإيمان بالحقوق الوطنية ولا إلى إنكار حق الغالبين في تسخير المغلوبين، بل ترجع إلى كراهة القيم ومقابلة العدوان

---

(١) حسن عيسى عبد الظاهر: القاديانية: نشأتها وتطورها ١٥، ط القاهرة ١٩٧٣م.

- البابية والبهائية في الميزان ٤٥ ملحق مجلة الأزهر، شعبان ١٤٠٥م.

(٢) أبو الحسن الندوي: شاعر الإسلام محمد إقبال ١٠٩، ط الأزهر ١٤٢٩هـ.

بالعدوان، ويختلف الصراع على الغلبة جد الاختلاف من هذا الصراع بين غاصب الحق والمطالب به، وهما متفقان معًا على حق صاحب الوطن في وطنه، فإن الثائر القديم إنما كان يثور لأن حالة السيد المطاع خير من حالة العبد المطيع، ولأن المرء لا ينـــزل عن رزقه وكرامته وهو قادر على أن يحتفظ بهما لنفسه، أما الثائر الحديث فهو في موقف – المقاضي – الذي يطالب بتراثه وماله، ويرد الأقوياء إلى شريعة غير شريعة الغلبة المرفوضة في ضمائر الناس"[1].

رحم الله تعالى العقاد، لقد سبق الذين نادوا بحوار الحضارات وسبق الذين جعلوا حضارتهم غالبة، وفكرهم غالبًا، وسبق الذين يدعون الغلبة لتفوقهم المادي أو المعنوي أو الجنسي، وهو يطالب بالحوار، والمعايشة، وحرص كل أمة على تراثها، وشريعتها حتى لا تبتلعها حضارة أخرى أو أمة أخرى أو دولة أخرى كما هو الحال الآن في الأمركة الأمريكية أو العولمة العالمية التي تريد السيطرة على كل شيء في الحياة، بحق أو بدون حق، ولعل السؤال الآن الذي يفرض نفسه، ما العمل تجاه هذه الغلبة والهجمة؟ ألا يوجد رد فعل لها أو قل إن شئت: غلبة مضادة أو هجوم مرتد يضع الأمور في

---

(١) عباس محمود العقاد: أثر العرب على الحضارة الأوربية ١٢٠، ط الأسرة ١٩٩٨م.

نصابها ويعتدل معه كفة الميزان من الغبن إلى الحق، ومن الظلم إلى العدل، هذا ما نبه إليه محمود محمد شاكر في قوله: "ينبغي أن يكون بيّنًا لك أن أوربة عند استواء يقظتها أدركت إدراكًا واضحًا أن الذي بلغته قد ضمن لها التفوق الحاسم، وأنها مقبلة على زحف شامل يخترق قلب دار الإسلام، لا بقعقعة السلاح، بل بوسائل أخر أمضى من وقع السلاح، أدرك ذلك ساستها ورهبانها وعلماؤها وعامة جماهيرها المثقفة، وهذا الزحف الصامت المصمم الخفي الوطء، سوف يضم ألوفًا مؤلفة من أشتات الناس، ما بين تاجر وصانع ومغامر ومدرس وسائح ومبشر وجندي وسياسي وراهب وطالب معرفة وأفّاق وصفّاق ومتكسب، والنية أن تكون هذه الأشتات جاليات كبيرة تقيم في دار الإسلام، تعاشر المسلمين فتطول العشرة أو تقصر، ولكل امرئ منهم اتجاه أو هوى أو أسلوب أو فهم..."[1]، وهكذا سار الاستشراق وانتشر التبشير بصبر الصابرين، وعناء الباحثين، وإخلاص المخلصين منهم، حتى غدا الغرب عملاقًا يفرض رأيه، ويملي ثقافته، ويغلق علميته على أمم كانت غالبة، فأصبحت مغلوبة، وآنّ لها أن تفيق الآن، وتتعلم من الدرس، حتى تنهض من كبوتها، وترجع إلى سابق عهدها كما تعلم الدرس الغرب

---

(١) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ٨١ .

قديمًا، وقد نبه د. جمال حمدان إلى فكرة الغلبة هذه بقوله: "إن الاستعمار كحركة توسع وتسلط، وصراع القوى الإستراتيجية كعملية بقاء أو تضخم، وليس كل صراع بين القوى هو من أجل الاستعمار، ولكن كل استعمار هو صراع من أجل القوة، بيد أنه ينبغي في النهاية أن كلاً منهما يؤثر في الآخر ويتأثر به إن لم يكونا في الحقيقة جانبين لنفس[1] الشيء.

* * *

(١) د. جمال حمدان: إستراتيجية الاستعمار والتحرير، ط الهيئة المصرية ٢٠٠٠م.

الفصل الثالث

اللغة والشخصية الإسلامية

تكتسب الشخصية سماتها من دينها، فإذا كان دينها منـــزلاً من عند الله تعالى، ووحي أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ كما هو الحال عند المسلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾ (آل عمران: ١٩)، وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)، فإنها شخصيته حضارية، ذات ثقافة وتاريخ وعلم ينفون عنها التخلف أو التأخر أو التبعية للأفراد أو الجماعات أو الدول، مما يؤهلها للقيادة والسيادة على الرغم من التقصير العلمي أو التكنولوجي، فهو مرهون بالأشخاص لا بالدين، والإسلام دين يقدر التقدم ويحض عليه، ويأمر بالعلم النافع الذي يقوي، ويطور من حياة الإنسان إلى الأفضل دائمًا، فهو لا يتعارض مع العلم، ولا منجزات العلم، ولا آلات العلم، وإنما العلم والتقدم أساس الدين الذي يقرب بين الخالق سبحانه، والمخلوق، ومن تمام العبادة، وإكمال الدين العلم بأنواعه وآلاته، وحسن استغلالهما في إعمار المجتمع، وإصلاح الحياة، حتى تتحقق الخلافة كما أرادها الله تعالى لعباده في الأرض، فالإسلام هو المكون الأساسي للأمة التي تعتز به دينًا، ولا ترغب عنه، ولا تريد

غيره، وبذلك تصبح خير أمة أخرجت للناس، وهذه هي النتيجة اللاحقة بكل أمة تتصف بهذه الصفات، وإن نزعت أو رغبت عن دينها، فلا خيرية فيها، بل هي كغيرها من الأمم التي سقطت، وتوارت مع التاريخ كعاد وثمود، وغيرها من الأمم التي نسمع عنها، وقد نرى أثرها باقيًا ليشهد على الوجود غير الموجود، لذلك وضح القرآن الكريم هذه الحقيقة جلية ناصعة في قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (آل عمران: ١١٠)، وهذه الخيرية في الأمة الإسلامية التي تفخر بها إلى يوم القيامة، جاءت من الإيمان بالله خالقًا وموجدًا، ومهيمنًا على الكون بما فيه من موجودات، بعث الله سبحانه وتعالى لهدايتها إن كانت تعقل الرسل من جنس المرسل إليهم حتى يحدث التوافق، والميل والفهم من جانب المدعوين، قال تعالى: ﴿**مَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأنعام: ١٢٥)، فالهداية تأتي من الله تعالى ثم يسبب لها الأسباب على يد الرسل من البشر الذين يدعون إلى الله تعالى على بصيرة وعلم قال تعالى: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا**

يَلْبِسُونَ﴾ (الأنعام: ٩)، فكان كرم الله، وفضله تعالى أن بعث الرسل منا، وجعلهم بشرًا يتكلمون لغتنا، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد: ٣٨)، وهؤلاء الرسل، وآخرهم محمد ﷺ كانت لغته القرآن، وهو عربي اللسان، والبيان فمحمد ﷺ — أنزل عليه القرآن العربي. تصديقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢)، وهذه اللغة العربية التي تكفل الله بحفظها، وتبليغها مع كل الرسل كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (إبراهيم: ٤) فاللغة العربية هي لغة القرآن، ولغة البيان، وعنوان الشخصية الإسلامية وأساسها القرآن، وهو وحي من الله على رسوله، وبالتالي فهذه اللغة أوحى بها الله تعالى، فمن ضيعها أو فرط فيها أو تناساها كأنما ضيع الوحي، وقطع سبيل الاتصال بين رب العزة الخالق والمخلوقين، فاللغة العربية لغة القرآن الذي نتعبد به، ونتقرب به ونحقق به الإلوهية للخالق والعبودية للمعبود، صلاة ودعاءً، وحجًا وزكاة، ونطقًا، وخلقًا، أليس كل هذا من فرائض الإسلام التي جاءت في القرآن، وبلغها محمد ﷺ خير بلاغ، وأحسن برهان، وهذا يلفت نظرنا إلى حقيقة مهمة وهي أن اللغة وحي

ودين، ومن ضيعها، فقد ضيع دينه وخسر عقيدته، ومن حافظ عليها حافظ على دينه، وعقيدته، وأجزم أن لغتي هي شخصيتي وشخصيتي هي نتاج ديني، وبيئتي التي تردد على أسماعي وأفكاري وحياتي القرآن الكريم صباح مساء، متلوًا أو مفسرًا، أو محفوظًا باللغة العربية التي نحيا بها، وتحيا بنا، ولذلك شغلت هذه القضية القدماء[1] والمعاصرين، وهي نشأة اللغة، فهل هي ظاهرة اجتماعية إنسانية في وضعها الذي نعرفه، أم أصلها الأول وحي من الله تعالى أوحاه إلى نبيه ورسوله آدم عليه السلام كما جاءت في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣١، ٣٢)، وفصَّل ابن جني القضية في التوقيف والتوفيق في خصائصه[2] وروى أبو جعفر الطبري في تفسير هذه الآية – علم آدم الأسماء كلها – قال ابن عباس: علم الله آدم الأسماء كلها وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس، إنسان، ودابة، وأرض، وسهل،

---

(١) د. حسن ظاظا: اللسان والإنسان: ٦٠، ط دار المعارف، مصر ١٩٧١م.

(٢) ابن جني: الخصائص ١/٤١ – ٤٧، ط بيروت .

وبحر، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها[1]، ورواية عن مجاهد: علمه كل شيء، وعن قتادة قال في قوله تعالى – قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم – فأنبأ كل صنف من الخلق باسمه، وألجأه إلى جنسه، وأنا أميل إلى أن الله تعالى علم آدم عليه السلام كل شيء، وصفاته ومكوناته وتقسيماته، وأجناسه، وما يصلحه وما يفسده، فآدم عليه السلام – خليفة في الأرض ولن تعمر إلا بالمعرفة الكاملة بما فيها من موجودات، ووسيلة التعارف بين هذه الموجودات والمخلوقات هي اللغة التي ظهر جليًا أنها وحي من الله تعالى فمن حافظ على لغته وأحسن إليها توثيقًا، وتصنيفًا، وتدريسًا، وتأليفًا، وتطويرًا، فقد أدى ما عليه من حقها، وأكمل ما كلفه الله تعالى به من حفظها[2]، ومن هنا تصح مقولة ابن خلدون إن غلبة اللغة بغلبة أهلها، وإن منـــزلتها بين اللغات صورة حية لمنـــزلة دولتها بين الدول، كما هو مشاهد الآن ومرئي للجميع أن اللغة الإنجليزية حاليًا هي أكثر اللغات انتشارًا وأكثرها ازدهارًا، وأخطرها تأثيرًا على اللغات الأخرى فهي غالبة بتقدم أهلها وتفوقهم المادي والصناعي

---

(١) أبو جعفر الطبري: جامع البيان ٤٨٢/١، سورة البقرة الآيات ٣١، ٣٢، دار المعارف، مصر ١٣٧٤هـ.

(٢) د. علي عبد الواحد وافي: نشأة اللغة ٣٠ .

– د. محمود أبو زيد: اللغة في الثقافة والمجتمع ٩٧، ط غريب ٢٠٠٧م.

والعلمي لا غير ذلك، والناظر إلى الغلبة هنا، ينظر بعين واحدة هي التقدم المادي فقط[1]، وينسى الانحطاط الخلقي والضياع الروحي، والجوهري في هذه الغلبة، بأنها غلبة قوالب لا قلوب، وتوحش أجساد لا روح فيها ولا رحمة، ولا تمثل من الإنسانية إلا ما يحقق لها السبق المادي، والرفاهية الموغلة في المتعة، والفصل الكامل بين ما يصلح النفس، وما يصلح الجسد أي الدنيا هي الأساس والمنتهى، وأما الآخرة فهي المؤخرة، ولا وجود لها إلا حين الموت، وإن كان ذلك غير وارد أصلاً في الفكر الغربي الحديث، وهذا هو الفرق الكبير، والبون الشاسع بين الحضارة الإسلامية، حينما أنارت الكون يومًا ما، فجعلت الدنيا خادمة الآخرة، والمادة سبيلاً للسعادة، وقدمت للبشرية نموذجًا حيًا في إنسانية، وعبادة رب الكون، الذي جعله متناغمًا بين إصلاح النفس بالدين، وإصلاح الجسد بالدين، والتقدم العلمي الذي يجاور الدين ويساعده ولا يجافيه ويعانده، فساعدت اللغة العربية الآخرين على التقدم والازدهار، وكانت سببًا في التفوق والنضوج، لا كما تفعل اللغات الأخرى الآن من القتل البطئ للغة العربية، والاقتلاع المهين لها من نفوس أهلها، وعقولهم، لذلك يقول الندوي: "ولكن العالم الإسلامي لا يؤدي رسالته بالمظاهر المدنية التي جادت بها أوربا على العالم، وبحذق لغاتها وتقليد

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٢٢ .

أساليبها في الحياة التي ليست من نهضة الأمم في شيء، وإنما يؤدي رسالته بالروح والقوة المعنوية التي تزاد أوروبا كل يوم إفلاسًا فيها[1]" فإنه الفرق بين حضارة الإسلام وحضارة غيره من الأمم، وحكم الإسلام وحكم غيره من الدول، "فإذا كان العالم الإسلامي لا يرمي إلا على ما تراه أوروبا من العرض القريب ولا يطمح إلا فيما تطمح فيه أوروبا من حطام الدنيا، ولا يؤمن إلا بما تؤمن به من المحسوسات والماديات، كانت أوروبا بقوتها المادية أحق بالانتصار، والسيادة من العالم الإسلامي الذي يتخلف عنها في القوة المادية تخلفًا شائنًا، ولا يفوقها في القوة المعنوية[2]" وتصديق ذلك في القرآن الكريم: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩).

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٠٤).

فرسالة العالم الإسلامي هي الدعوة إلى الله تعالى ورسوله والإيمان باليوم الآخر، وجائزته الخروج من الظلمات إلى النور ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٣٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ص٣٨٣ .

جور الأديان إلى عدل الإسلام، وقد ظهر فضل هذه الرسالة وسهل فهمها في هذا العصر أكثر من كل عصر، فقد افتضحت الجاهلية المادية، وبدت سوآها للناس، واشتد تذمر الناس منها، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام، ولو نهض العالم الإسلامي، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماسة وعزيمة، ودان بها كالرسالة الوحيدة التي تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال[1]، إذا النفوس صحت من غفوتها[2]، فالعالم الآن يمر بمرحلة ما يمكن تسميتها بالفراغ الفكري إذ العالم كله في مرحلة تحول جذري من منظومة عالمية إلى منظومة أخرى تثبت جفاف ينابيع النظريات الفكرية السابقة، وإننا أمام ظواهر جديدة وعالم جديد يحتاج إلى فكر جديد وإبداع جديد[3].

* * *

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم ٣٨٣ .

(٢) د. محمود محمد عمارة: الإعلام الإسلامي ١٤٠ .

(٣) الخصوصية الثقافية ٤٦٣، مجلة حوار الثقافات، ٢٠٠٨م، جامعة القاهرة.

الفصل الرابع

الأمركة والعولمة والتفكيك

هذا الفصل إجابة تقريبية عن سؤال مهم بل حيوي: هل تتراجع الفصحى في العالم العربي؟ وما أسباب هذا التراجع على المستوى الفردي والجماعي والمحلي والدولي؟ وما الحل لهذا التراجع؟

وهذا سؤال قديم حديث، أجاب عنه العلماء والباحثون والمعلقون ومن له صلة باللغة العربية أو الأمة الإسلامية، ناهيك عن الدخول في سفسطة الجدال، ومتاهات الحوار، والاجتماعات المغلقة والمفتوحة، وكذلك ردود الذين يؤمنون بالفكر الغربي سواء أكانوا من تلامذته أم من معتنقيه أم من عشاقه، أم من الداعين إليه بكل وسيلة تمكنهم من ذلك، وبكل طريقة تقربهم من هدفهم المنشود، وكذلك ردود الجامدين من علماء العرب والمسلمين الذين يظنون أن اللغة العربية محفوظة، ولا خوف عليها، ولا مساس بها، مادام القرآن الكريم موجودًا، وما دامت المدارس والجامعات تعلم بها وتدرس بها، في الكليات النظرية فقط، وأما الكليات العملية، والمدارس التجريبية واللغات والأقسام الجديدة التي ظهرت بدعتها في قانون الجامعات أو إدارة الجامعات الجديدة بجعل أقسام الرياضة، والمحاسبة، وبعض أقسام كليات الحقوق والتربية والآداب تدرس

مناهجها باللغة الإنجليزية، ويدفع الطالب مقابل ذلك أضعاف ما يدفعه الطالب العادي، حتى يتسنى له دراسة ما يريد باللغة الإنجليزية مثلاً، وبهذا يصبح متخصصًا في فروع علمية أو نظرية مدروسة بلغات أوروبية في الجامعات المصرية الحكومية في جامعة عين شمس مثلاً، قسم الرياضة في كلية التربية يدرس الطالب الرياضة باللغة العربية، وبالإنجليزية، في الحقوق قسم خاص باللغة الفرنسية، في التجارة كذلك، وهكذا يدرس الطالب المصري العربي بلغات أوروبا قبل أن يصل إليها، أليست هذه كارثة جديدة تضاف إلى ما نحن فيه من كوارث؟ تكلمنا قبل ذلك عن بدع العامية، والمصرية والفرعونية، هذا على المستوى المحلي في مصر، وكانت النتيجة التأثير المضعف والمخيف على اللغة العربية وتدريسها، وتعليمها، وبخاصة في الحقبة التي احتلت فيها مصر من الإنجليز، ودعواهم المكررة، والممجوجة للتعامل بالعامية، لغة وكتابة وكذلك حرص المستشرقين على إشاعة هذه الدعوى، وتشجيعها في كل عصر وأوان حتى الآن، حتى ظهرت رسائل وكتب تحذر من هذه الدعوى مثل كتاب "تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر"(١)، وهذا يدل دلالة واضحة على فكر منظم ومخطط لهدم هذه اللغة، وأنا على يقين، أن

(١) د. نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر. ط. دار المعارف، ١٩٦٧م، وأعادت طباعته مؤسسة البابطين.

هذا المخطط قد نجح في عدة طرق، ومنها هذا المنعطف الخطير الذي يسيطر الآن على فكر أصحاب الجودة والذين يريدون طمس اللغة العربية، وضياع الهوية الإسلامية بأمركة التعليم، في كل شيء من المدرسة والمدرس، والجامعة والأستاذ، وكذلك المناهج والمقررات، ساعد على ذلك المؤسسات الاقتصادية العالمية التي تمول وتدفع نظير أن تنفذ الدول والأفراد خططها ومشاريعها، دون التردد أو التساؤل على مردود هذا المشروع أو تلك المدفوع، وإنما هي العولمة التي تدفع ثمنها اللغة العربية، بغياب أهلها عن الواقع، وغرامهم بالتقليد الأعمى والحب البغيض للغة الإنجليزية والثقافة الأمريكية، وخاصة بعد نكبة الاتحاد السوفيتي وتفككه إلى وحدات، ودول، كل دولة تحاول أن تجمع شتات حياتها، وتلملم بعثرة لغتها، كل على قدر أهل عزمه، وصانعي قراره، فالبعثات الآن مقصورة على اللغة الإنجليزية، والتدريب أيضًا والتمويل كذلك، وإن شئت فقل أمركة[1] الحياة أو جمركة الفكر وتطويره بما يناسب الجمارك الأوروبية وعلى رأسها الجمرك الأمريكي، ولن أكون مغاليًا إذا يممت نحو المدرسة، فهل يعلم التلميذ اللغة العربية، بنفس أسلوب تعلم اللغة الإنجليزية، والمدرس والمنهج. وشكل الكتاب وطباعته، وحب التلميذ للمادة وطريقة الشرح، قارن! تجد الفرق واضحًا، والبون شاسعًا، والنتيجة

---

(١) د. مصطفى النشار: ما بعد العولمة: ص٤٧، ٧٣، ط قباء، ٢٠٠٧م.

كره التلميذ للغته، وبُعده عنها، وحبه للغة الأجنبية وقربه منها، فالوسائل تعين في اللغات الأخرى، والإذاعة والتليفزيون، والإنترنت، والأفلام حتى البيئة التي نحاول إيجادها في تعليم اللغة العربية مازالت غير كاملة وينقصها الوعي الكامل بقيمة هذه اللغة العربية عند ملقيها ومتلقيها وخاصة بعد دخول الشركات متعددة الجنسيات والقنوات العابرة للقارات التي تدخل بثمن وبدون ثمن كي تعربد هنا وهناك، مما يجذب الصغير، ويلهي الكبير، وهذا هو الدور الذي يلعبه الإعلام الغربي حديثًا، "إن سوء التخطيط والإعداد لتلك البرامج يعتبر من أهم الأسباب التي عن طريقها يتوجه الجمهور إلى البرامج الأجنبية عن طريق وسائل الإعلام والثقافة الأخرى في المنــــزل كانت أو في المقهى، والتي لا تتفق فقط مع عادات المجتمع وقيمه وثقافته بل إن خطورة هذا الوضع تنحصر في أن تعرضه لهذه الأشكال لا يخضع لرقابة المجتمع، التي تمارس من خلال برامج التليفزيون القومي"[(١)].

وتضرب الباحثة مثالاً على ما نحن فيه "ويمكن الكشف بالحقائق والأرقام كما تكشفه الدراسات العلمية الحديثة في مجالات الإعلام والاتصال الجماهيري، مدى القصور الذي يسيطر على قنواتنا العربية

---

(١) د. نسمة أحمد البطريق: الإعلام والمجتمع في عصر العولمة، دراسة في المدخل الاجتماعي، ص٤٦ – ٤٧، ط دار غريب، سنة ٢٠٠٤م.

الفضائية، فالعالم العربي لا ينتج سوى ٣٠٪ من احتياجاته في حين نحتاج إلى ٤٣٠ ألف ساعة إنتاج سنويًا لملء سعة تلك القنوات الفضائية العربية من مواد إخبارية وثقافية ودرامية ... حتى لا يلجأ الجمهور للإعلام الغربي والذي لا يتفق مع وجهات نظر الشعوب العربية ومصلحتها"[١]، هل هذه مؤامرة على اللغة العربية، لقد سبق الكلام أن هذا تخطيط استراتيجي دولي، ولم يعد مسكوتًا عنه أو مخفيًا، إنما نحن الذين نخفي رءوسنا في الرمال، ولا نفعل ما يجب أن يفعل، والأمثلة كثيرة، كيف نقبل مسلسلاً أو تمثيلية أو قصة أو فيلمًا أو ما شابه ذلك لعرضه دون مراجعة لغوية أو فكرية، بل أحيانًا ينفق على هذه الوسائل بالملايين شريطة أن تبث بالعامية أو ما يخالف عاداتنا وديننا، ومجتمعنا، ويكون إنفاقًا سخيًا وإذا جد المؤلف أو المخرج في عمل، لا يجد من يموله، أو يؤازره، فالنتيجة الحتمية توقف العمل الجاد، وسريان العمل غير الجاد سريان النار في الهشيم، إما سخاءً أو مخالفة للقوانين، أو تجاهلاً للدين، وعلى هذا يصبح العالم كما يقول توماس ل. ميكافيل: "يفرز هذا البناء المركزي للتدفق الدولي للأخبار نتيجتين تؤثران في استقلالية الإعلام، **الأولى:** إن الدول الصناعية الغربية تقف في موقع المنتج والبائع للأخبار

---

(١) د. نسمة أحمد البطريق: الإعلام والمجتمع، ص٤٧ .

الدولية، وفي المقابل تقف الدول الهامشية في موقف المستهلك[1] الذي يعتمد على المعلومات والأخبار التي تنتج في الدول المركزية" وبذلك يفرض علينا ثقافة غيرنا، ولغة غيرنا، وعادات غيرنا فأين نحن إذن؟ سوف تضيع اللغة، وتهبط الحمية لكل ما هو عربي، أو إسلامي، بسبب هذا التغلغل الأمريكي أو الأوروبي الذي يكتسح دون منازع، ويتفوق دون رادع، والمتلقي في شوق لكل جديد، وفي نشوة تجعله لا يدرك مغزى ما وراء هذه التدفقات الغربية، أو المنتجات اللاوطنية أو غير العابئة بثقافته أو عاداته أو دينه وإذا كانت العولمة قد ولدت في الولايات المتحدة الأمريكية فمن المفترض نظريًا، والآن أصبح عمليًا أنها تعني الدعوة إلى تبني النموذج الأمريكي في مناحي الحياة بشكل عام، ومن ضمنها الثقافة والفكر والإعلام واللغة، وإنها بآلياتها وتقنيتها ونظمها الثقافية قد تؤدي إلى ضياع أو إضعاف مئات اللغات، وتدفع التطور العالمي في اتجاه اللغة الواحدة والثقافة الواحدة واللسان الواحد، وربما تؤدي العولمة إلى طمس الهويات والثقافات الخاصة والمحلية، وعلى رأسها جميعًا اللغات، التي تمثل بالطبع الوعاء الأول للثقافة والمخزون التاريخي

---

(١) توماس. ل. ميكافيل: الإعلام الدولي ٤٩، ترجمة د. حسني محمد نصر، د. عبد الله الكندي، ط العين، سنة ٢٠٠٥م.

للتقاليد والأعراف والفنون والإبداعات والعناصر المميزة لها[1]، ودلل المحاضر على كلامه بالأرقام التي تثبت ذلك، فإن ٩٠٪ من العناصر التي تتحرك في شبكة الإنترنت هي بالإنجليزية وحدها، ٨٥٪ من الاتصالات الدولية عبر الهاتف تتم بالإنجليزية أيضًا، وأكثر من ٧٠٪ من الأفلام التليفزيونية والسينمائية بالإنجليزية، ٦٥٪ من برامج الإذاعات في كل العالم بالإنجليزية، ألا يدل كل ذلك على العولمة الغربية الأمريكية المفروضة على العالم، وهنا تصبح الثقافات الوطنية محل اختبار حقيقي، وكذلك اللغة العربية، إما أن نحافظ على تميزها وتفردها وسط هذا الذوبان الثقافي المتوقع، أو نتعامل مع هذا النمط الغربي، وتتوحد معه، فتفقد تميزها وتفردها مع مرور الوقت، وهذا هو التحدي الحقيقي الذي يواجه العالم بأسره، وبصفة خاصة العالم النامي، فلو نظرنا إلى التأثير الأدبي الأوروبي، الذي يواجه حاجز اللغة ووساطة المترجمين وجدنا أنه استغرق وقتًا أطول في النفاذ، ومع ذلك فإن استيعاب الأشكال الأدبية والطرز الأدبية الغربية الشائعة قد اكتمل، وأصبحت الأنواع الأدبية الأوروبية المتميزة مثل الرواية والمسرحيات صورًا معتادة للتعبير الأدبي في جميع اللغات الأدبية للشرق الأوسط" وهذه الشهادة لبرنارد لويس في

(١) د. كمال بشر: مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ع٩٦/ ٤٢ .

كتابه عن التأثير الغربي[1] واستجابة المسلمين، يجعله يقرر: أن الإسلام أول من أحرز تقدمًا كبيرًا نحو تحقيق ما كان يرى أنه يمثل رسالته العالمية، وكانت الحضارة الغربية الحديثة أول حضارة تشمل كوكب الأرض كله.

* * *

(١) برنارد لويس: أين الخطأ ٢٣٢، ترجمة د. محمد عناني ودراسة د. رءوف عباس، م الأسرة ٢٠٠٩م.

الفصل الخامس

اللغة والسياسة

من البديهي أن علم اللسانيات أو علم اللغة الحديث، قد ازدهر في مطلع القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية، لأسباب سياسية عسكرية، حيث كان الشعب الأمريكي أخلاطًا، تتحاور بلغات شتى، ولهجات متعددة، فانكب اللغويون على دراسة القضية اللغوية وسهلوا مهمة التوحيد اللغوي، على مستوى الولايات كلها، فتم التوحيد اللغوي، وبرزت قيمة اللغة الإنجليزية موحَدة وموحِدة لهذا الشتات العظيم، وهذا المثال العكسي على الاتحاد السوفياتي الذي تفرق بعد تجمع، وتشتت بعد توحد، كله قرار سياسي(1). وكذلك الصين وغيرها من البلاد التي جعلت قضية اللغة أساسًا ومعيارًا للوجود كما حدث عند اليهود في اللغة العبرية الميتة، أو التي أكل عليها الزمن وشرب، فأخرجتها من سباتها، وأدخلتها في حياتها بقرار سياسي، فأصبحت لغة الثقافة والعلم والفكر، واللغة العربية هي لغة سياسية في شعرها ونثرها وخطبها وفرحها وأحزانها التي سارت بين العرب قديمًا وحديثًا، وحديثًا نشأ علم اللغة السياسي(2).

---

(1) الموسوعة الفقهية ٢٨/ ٢٩٤ مادة سياسة، ط الكويت ٢٠٠٤م.

(2) د. محمد محمد داود، اللغة والسياسة في عالم ما بعد ١١ سبتمبر ٥٧، ط غريب ٢٠٠٣م.

والمتتبع للأخبار والدوريات، والإذاعات والمقالات يجد ضخمًا عملاقًا للإعلام الصهيوني. في موجات متلاحقة على مستوى العالم وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية، حول قضية معاداة السامية مثلاً فالحرب بالكلمات، والجمل والعبارات كلها تعتمد على اللغة، وكذلك الناحية الاقتصادية العلمية، وما نراه في هجرة الأدمغة العربية، ونزيف العقل العربي الذي يهاجر تاركًا بلده وموفدًا ومرحبًا به في مهجره، يحملون جنسيات الدول المضيفة ويعتزون بهجرة لغتهم وأحيانًا دينهم، وقل ما شئت عن علمهم ومدى تقدمه، وخدمة البلاد المضيفة، كل هذا يرجع إلى القرار السياسي الذي يعطي الضوء والإشارات تلو العبارات في فتح أبواب الهجرة على مصراعيها أمام هؤلاء العلماء، الذين هم أساس التقدم وعماد الحضارة للبلاد الأوروبية، أما بلادهم التي رحلوا عنها، فهي كالفقير على موائد اللئام، تتلصص منهم العلم، وتستجدي أحيانًا منهم المعرفة يقول صاحب كتاب – الإسلاموفوبيا –: "فتطلعنا الأرقام على أن ٥٠٪ من إجمالي عدد الأطباء العرب قد تركوا بلادهم وهاجروا للعمل في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، كما تركها نحو ٢٥٪ من إجمالي عدد المهندسين، ونحو ٢٠٪ من إجمالي عدد المتخصصين في العلوم التطبيقية، كما تقدر اليد العربية العاملة الموجودة بالفعل داخل المجموعة الأوروبية حوالي ٥ ملايين عامل بما

فيها الجيل الثاني الذي دخل سوق العمل"[1].

والحقيقة التي يجب الانتباه إليها، أن هذه الكفاءات تعكس ضعفًا على اللغة العربية كبير الأهمية، حيث ترجع إلى بلدها وقد تشبعت بلغة مهجرها، وتخلصت من لغتها الأصلية أحيانًا كثيرة، فترى غيرها يريد تقليدها أو اللحاق بها في تغييرها، وفي لغتها، التي أصبح المهاجر مجيدًا لها ومتحدثًا لبقًا بها، وهذه كارثة أخرى تضاف إلى أخواتها، فبدلاً أن يساعد هذا المهاجر على تقوية لغة بلده، يكون سببًا رئيسيًا في ضعفها، والحطّ من قيمتها وشأنها دون أن يدري، وأحيانًا أخرى يدري بذلك، ويُسر تمام السرور.

فإذا أرادت الشعوب، والقادة الحفاظ على اللغة العربية، سوف نفعل الكثير، وسوف تحبط مخططات المتربصين، وتفشل تدابير الساخطين على الدين الإسلامي ولغته العربية، حينما نجد القادة يخطبون باللغة العربية، والمثقفين يتحدثون باللغة العربية في وسطيتها، ولا نقول جاهليتها، حينما ترى الإذاعات والتليفزيونات تنشر وتذيع وتتحدث بهذه اللغة العربية سوف تنشط هذه اللغة عند المتلقي، ويتعود على سماعها وحبها، والإكثار منها، حينما تجد الداعية، والمدرس، والخطيب، وأستاذ الجامعة، والطبيب كل هؤلاء

(١) د. سعيد اللاوندي: الإسلاموفوبيا ٥٩، ط مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م.

يتحدثون بلغة عربية صحيحة، قريبة من الفصحى وبعيدة عن العامية المرذولة، واللهجات الغريبة، والنــزعات المحددة من قبل المستعمر أو المحتل، سوف تضيق الهوة بين مستويات اللغة العربية، وتصبح لغة الحوار(١) والحياة والفكر والعلم، وحينما تأخذ هذه اللغة العربية حظها، ومكانها سوف نأخذ نحن مكاننا، وتقدمنا. جاء في التقرير الاستراتيجي العربي لعام ٢٠٠٧م، ما نصه: "إن متابعة الخطاب الرسمي حول تطوير التعليم المصري يشير إلى غلبة العفوية السياسية، أو النظرة الوظيفية الفنية، دون درس وتحليل موضوعي، وعبر الدراسات الإمبريقية المنضبطة عمليًا لكافة مكونات الاختلالات في الأنظمة والسياسات التعليمية على اختلافها، إن تدهور مخرجات الأنظمة التعليمية تشير إلى تدني مستويات الكفاءة والقدرات لدى خريجي كل مرحلة تعليمية، وافتقار الغالبية إلى التكوين العملي المهاري في بعض القطاعات المتطورة تقنيًا، وبما يتلاءم مع التغيرات النوعية الكبرى في المعلومات والصناعات الأكثر تطورًا في غالبية دول العالم التي حققت طفرات تقنية وعلمية وإنتاجية، وفي معدلات النمو في الدخل القومي خلال العقدين الماضيين، والتي تعود لتطور

---

(١) د. عبد السلام المسدي وجهاد فاضل: اللغة العربية مهددة بالضمور أو الأفول: مجلة العربي منتدى اللغة العربية.

http/www.Alarabimag.com/arabi/data ٢٠٠٧ /P ١٠/١

الأنظمة التعليمية، وارتباطها بالمشروعات التنموية"[1] فالتعليم هو أكثر الموارد الاقتصادية استثمارًا في رأس المال البشري وهو الطريقة المثلى في إحداث تغيرات، بل وتحديثات، وإن شئت نقل المجتمع من حالة إلى أخرى كما تفعل الدول الغربية والأوروبية، وخاصة إذا كان هذا التعليم يعتمد على عقول وطنية ورؤى وطنية ترفع من إنتاجية عناصر الإنتاج الثلاثة – العمل – رأس المال – الأرض – بشكل مستمر، وهو ضامن لعملية النمو الاقتصادي والتغيير السياسي، والاطراد والزيادة عبر الزمن، مضافًا إلى ذلك ما تحويه المنظومة المجتمعية من تغيير وتطوير كلما تقدم التعليم، والآثار الإيجابية المتوقعة لجودة التعليم، وتحسين برامجه، كفيل بالتغيير الجذري للمجتمع إذا نظر إلى الاستثمار فيه بعين الجد، والمستقبل، انظر إلى المسح الذي أجراه المنتدى الاقتصادي العالمي بدافوس، وتم نشر نتائجه في تقرير التنافسية ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧م والذي تم خلاله استطلاع رأي عينة من ١١٩ صاحب منشأة ومسئول تنفيذي بخصوص مواءمة نوعية التعليم التي يقدمها نظام التعليم في مصر مع احتياجات الاقتصاد التنافسي، وتم إعطاء درجة تتراوح بين الواحد الصحيح وسبعة، وكان متوسط قيمة هذا المؤشر في مصر حوالي

---

(١) التقرير الاستراتيجي العربي ٢٠٠٧/ ٤٥٨ التعليم المصري إلى أين؟

٢,٧% والتي احتلت مصر من خلاله المرتبة ٩٥ من ١١٧ دولة تم إجراء نفس الاستطلاع[١] فيها.

فالسياسة بمعناها العام، وخاصة التخطيط المستقبلي يدعم اللغة العربية دعمًا مباشرًا، وحبذا لو قدم الساسة والقادة في العالم العربي خطة متكاملة تتعاون على إصلاح اللغة العربية والدفع بها إلى صدارة الموضوعات القومية التي تثبت وجودنا على خريطة العالم، وأن لغتنا لا تقل شأنًا عن أي لغة من لغات العالم المتقدم، وذلك لأن أصحاب القرار، وأرباب التخطيط هم أحق الناس بهذا العمل القومي الذي يعود نفعه على الأفراد والمجتمعات والدول بل على العالم كله، فاللغة العربية كانت ومازالت لغة الحضارة والعلم والثقافة حينما مكّن لها أهلها أن تسود، وتقود وهو الأمل الذي ننشده الآن، ونتمناه حتى لا تذوب اللغة ونحن معها في هذا العالم الذي سيغدو واحدًا[٢].

* * *

---

(١) التقرير الاستراتيجي العربي ٢٠٠٧/ ٤٥٨ التعليم المصري إلى أين؟

(٢) هانس – بيتر مارتين، هارالد شومان: فخ العولمة ٤١، ط الكويت ١٩٩٨م.

الخلاصة

١- التخطيط للمستقبل، والتوقع لما يحدث، واستثارة العقول خير دليل على التقدم المادي الذي يخدم مناحي الحياة، ووعاء هذا التخطيط اللغة العربية التي وسعت كل العلوم والثقافات والفنون، والمستحدثات، فما ضاقت هي ولكننا أصحابها ذهبنا إلى غيرها، فاستعصت علينا بجهلنا بها، وتفوق غيرها بحبه لها، فأجاد العدو، وفشل المحب، فلابد من إعادة النظر، وإصلاح التقصير، وتعديل المسير حتى تظهر النتائج، ونجني ثمار ما زرعناه في حق لغتنا، فهي لغة الدين، وحفظها هو حفظ للدين، وضياعها ضياعه، فإن حفظها من مقاصد الشرع الضرورية التي أمرنا بها، ولن تقوم لنا ثقافة أو حضارة إلا بها، وبحبها والرغبة الأكيدة في خدمتها بكل ما نملك من أموال وأعمال وخطط.

٢- الإنتاج اللغوي الجيد في كل المجالات علامة تجارية تغزو العالم مبشرة بثقة أصحاب اللغة بها، وبقدرتها على عدم الذوبان في غيرها، مما يؤهلها للصدارة، والسيادة، في عصر لا يعرف إلا الجودة والإتقان، والقوة والإحكام وسرعة الاتصال بين اللغات والثقافات في عصر العولمة والأمركة.

٣- الدفاع عن اللغة العربية في مستوياته المتنوعة الداخلية

والخارجية، والتمسك بها نطقًا وكتابة، وخطبة وترجمة، وفنًا وتمثيلاً حتى الأغاني، لابد لها من ضابط لغوي سمعي، يحسن ولا يقبح، وينشر ولا ينفر، فما زال أعداء اللغة العربية متربصين بها، ويحسنون في صنيعهم، ويجودون في هدفهم، من حيث ضيعنا نحن، و لم نهتم بلغتنا العربية.

٤- الترغيب، والتيسير، أداتان مهمتان من أدوات التربية والتعليم للغة العربية من المدرسة حتى الجامعة، وكذلك التشويق حتى لا ينفر المتلقي من لغته، ويهرب إلى غيرها، وهذا واجب قومي، ووطني، يحتاج إلى تضافر الأجهزة، واتحاد السياسات التي تتولى هذه المهمة، والإشراف عليها، والمتابعة لها، من خلال الخبرة، والتقدم العلمي، والميزانيات التي تفي بما يطلب لها، فالبخل على اللغة العربية مرده وخيم وقاتل.

٥- لا أرى دورًا لرجال الأعمال، والأغنياء، والشركات والمنتديات، والنوادي لخدمة اللغة العربية، فتعقد الدورات، وتقام الندوات، وتكلف الأموال الطائلة على الحاسب الآلي، تعليم اللغات — ما عدا اللغة العربية — حتى فنون الطهي والطعام والشراب، والحياكة، والتفصيل، وكل ما يتصل بحياة الإنسان، ونسينا أو تناسينا الاهتمام باللغة العربية، وجعلها محور تفكيرنا، أو عنوان ندواتنا، او طريق تقدمنا، وهي كذلك إذا

ترجمنا الكلام إلى أعمال، والأماني إلى أفعال، وهذا ليس بمحال.

٦- اللغة العربية يراد لها الدمار، ويُعد لها بليل ونحن غافلون عن ذلك، فلابد من الصحوة وإعداد العدة، وإلا أصبحنا مع الغابرين، والبائدين، والهالكين، فاللغة كائن حي يحتاج إلى الرعاية والعناية والصيانة.

٧- تطبيق وتفعيل قرارات مجمع اللغة العربية المتعاقبة في الكتابة باللغة العربية، ومنع الازدواجية اللغوية في الخلط بين العربية والإنجليزية أو غيرها من اللغات الأخرى في الإعلانات، والواجهات، ومحال البقالة، والورش، والشوارع، والأحياء، ووسائل النقل، وكذلك الأطعمة والأشربة، والأدوية التي أصبحنا نجيد اسمها الأجنبي، ولا نعرف العربي مثل: الشيبسي، كوكاكولا، باص، هوت دوج، سيمون فيليه، وهكذا.

٨- الاهتمام الواقعي بالنص القرآني، ودراسة التربية الدينية الإسلامية التي تنمي لغة الطفل، وتقوي ملكة النطق منذ الصغر، وكذلك اختيار النماذج الواضحة من النصوص الأدبية التراثية التي تساعد المتلقي على حبه للغته، وطلبه للزيادة منها، على سبيل المكافأة والتشجيع، لا الجبر والإلزام، كما كانت تفعل الكتاتيب قديمًا، مع الاهتمام بالمعلم، والمربي الذي يتولى هذه

المهمة الصعبة، وتعليمه الطرق الحديثة، والمناهج الجديدة، والوسائل المبتكرة في أداء رسالته.

٩- تحديث مقررات اللغة العربية، واختيار البرامج المناسبة لكل عمر دراسي من خلال المسابقات التي تظهر أفضل الطرق، وأحسن السبل في مجال اللغة العربية، والتاليف فيها، ومكافأة المبدعين بها.

١٠- عودة جماعات النشاط المدرسي، مثل جماعة الإلقاء، والشعر، والقصة، والخطابة، والمسرحية وهكذا، ثم التشجيع المادي للمعلم والطالب القائم بالنشاط.

* * *

أهم المصادر والمراجع

١- أثر العرب على الحضارة الأوروبية: عباس محمود العقاد، ط الأسرة، ١٩٩٨م.
٢- أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر: د. محمد خليفة حسن، ط السعودية، ٢٠٠٠م.
٣- إستراتيجية الاستعمار والتحرير: د. جمال حمدان، ط الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٠م.
٤- الإسلام والحضارة الغربية: د. محمد محمد حسين، ط المكتب الإسلامي ١٩٧٩م.
٥- الإسلاموفوبيا: د. سعيد اللاوندي، ط الأسرة، ٢٠٠٦م.
٦- الإعلام الدولي: توماس ل. ميكافيل، ط العين، ٢٠٠٥م، ترجمة د. حسني محمد نصر، د. عبد الله الكنذي.
٧- الإعلام الإسلامي: د. محمود محمد عمارة، ط الأزهر، ٢٠٠٨م.
٨- الإعلام والمجتمع في عصر العولمة: د. نسمة أحمد البطريق، ط غريب، ٢٠٠٤م.
٩- تحت راية القرآن: مصطفى صادق الرافعي، ط التجارية، ١٩٦٦م.

١٠- التعريفات: الجرجاني، ت ٨١٦هـ، ط. بيروت، ٢٠٠٣م.
١١- التقرير الاستراتيجي العربي، ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧م، ط الأهرام، ٢٠٠٧م.
١٢- ثقافتنا في مواجهة العصر: د. زكي نجيب محمود، ط الهيئة المصرية، ١٩٩٧م.
١٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: الطبري ٣١٠هـ، ط المعارف، ١٣٧٤م.
١٤- الخصائص: ابن جني، ط بيروت، تحقيق محمد علي النجار.
١٥- الخصوصية الثقافية نحو تفعيل التغير السياسي والاجتماعي، برنامج الدراسات الحضارية وحوار الثقافات، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، طبعة ٢٠٠٨م.
١٦- ديوان حافظ إبراهيم: ط الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٠م.
١٧- الدعوة إلى العامية: د. نفوسة زكريا سعيد، ط. المعارف، ١٩٧٠م.
١٨- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: محمود محمد شاكر، ط. الهلال، ١٩٩١م.
١٩- رؤية إسلامية: د. زكي نجيب محمود، ط الهيئة المصرية، ١٩٩٥م.

٢٠- شاعر الإسلام محمد إقبال: أبو الحسن الندوي، ط الأزهر، ١٤٢٩هـ.

٢١- الشرع واللغة: أحمد محمد شاكر، ط القاهرة، ١٩٧٨م.

٢٢- العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق: د. محمد البهي، ط. الأزهر ٢٠٠٧م.

٢٣- قصة قلم: محمود محمد شاكر، ط الهلال، ١٩٩٧م.

٢٤- فخ العولمة: الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية: هانس – بيتر مارتين، هارالد شومان. ترجمة د. عدنان عباس علي، ط. الكويت، ١٩٩٨م.

٢٥- اللسان والإنسان: د. حسن ظاظا، ط دار المعارف، ١٩٧١م.

٢٦- اللغة والسياسة: د. محمد محمد داود، ط غريب، ٢٠٠٣م.

٢٧- اللغة والهوية: جون جوزيف، ط الكويت، ٢٠٠٧م.

٢٨- اللغة في الثقافة والمجتمع: د. محمود أبو زيد، ط غريب، ٢٠٠٧م.

٢٩- ما بعد العولمة: د. مصطفى النشار، ط قباء، ٢٠٠٧م.

٣٠- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن الندوي، ط السنة ١٩٩٠م.

٣١- مذاهب التفسير الإسلامي: جولد تسهير، ط القاهرة،

١٩٥٥م، ترجمة د. عبد الحليم النجار.
٣٢- الموسوعة الفقهية: ط الكويت، ٢٠٠٤م.
٣٣- نشأة اللغة عن الإنسان والطفل: د. علي عبد الواحد وافي، ط نهضة مصر، ١٩٨٠م.

* * *

هذا الكتاب

لقد أثرت على اللغة العربية عدة مؤثرات منذ دخول الاستعمار إلى البلاد الإسلامية، وفرض لغته، وغلبة ثقافته، وبعد خروجه عسكريا ظل التأثير السلبي على اللغة العربية وأهلها حتى جاءت المؤثرات الحديثة من الثورة التقنية، والمعلومات وثقافة القطب الواحد، وما تلاه من عولمة أمريكية في كل شيء، وغلبت الرطانات، والعاميات، والنــزعات الفردية، وهيمنة اللغات الأجنبية، مما زاد من ضعف اللغة العربية وفقداها الكثير من مقومات هويتها وشخصيتها التي اكتسبتها منذ عصر النبوة، وما قبله، وبعد نزول القرآن الكريم الذي جعل اللغة العربية أساسًا للفكر والثقافة والعلم، زيادة على كونها لـ الوحي، والحفاظ عليها حفاظ على الوحي وضياعها ضياعه، وبقاؤها بقاؤه مما يحتاج منا إ سياسة مدروسة، وخطط مستقبلية، تشترك في كل الدول المتحدثة باللغة العربية.